

الدكتور أبو القاسم سعد الله... الأيام الأخيرة

الدكتور محمد العربي معريش

قسم التاريخ - جامعة الجزائر 2 أبو القاسم سعد الله

يعود مرض الدكتور إلى فترة قد تزيد على 15 سنة. وقد رافقته في زيارته إلى مستشفى مصطفى باشا بالجزائر العاصمة عدة مرات، تارة إثر أزمات صحية مفاجئة وأخرى لمواعيد استشفائية منتظمة. وليس سرا أنه كان مصابا بمرض الكبد، تأقلم معه في الأخير رغم معاناته منه، ومعاناة السيدة "أم أحمد" مما ترتب على المرض من وقاية وحماية... إلخ. فطهور إن شاء الله. اللهم اغفر له وارحمه، فإنه كان يذوب ذوبان الشمعة التي تضيء للغير. وجازى الله كل خير أم أحمد عما عانته في سبيل راحته.

يهمني في هذا المقال على الخصوص الأشهر الأخيرة من مرضه، مما يرغب محبوه معرفته. فقد زار المستشفى العسكري بعين النعجة (الجزائر العاصمة) مرات عديدة، ولم أزره أثناءها لأنها لم تكن زيارات استشفاء وإقامة. أما زيارتي له فيه، وإعلامي بدخوله من طرفه، فكان بعد شهر رمضان 1434 (شهر أوت 2013).

- قال: إنه لم يحترم نصيحة الطبيب بعدم الصيام بعذر المرض، ولما قلت له: كان عليك أن تلتزم بنصيحة الطبيب، قال: وكذلك فعلت بنصيحة الطبيب في رمضان الفارط، ولم يحدث لي شيء، قلت: ليس رمضان العام الماضي مقياسا، فالعمر يتقدم والمرض يستفحل.

- نصحته ما دام مريضا ألا يترك أحمد يعود إلى الولايات المتحدة، وكان قد جاء قبيل أو أثناء شهر رمضان.

- عشية استئناف السنة الجامعية، هاتفني مبديا رغبته في أن أصطحبه في سيارتي إلى قسم التاريخ لإمضاء محضر استئناف العمل. مررت به يومها (1 سبتمبر 2013) في طريقي إلى الجامعة، في حدود الساعة 9، وصعد السيارة بجهد جهيد لألم في ظهره، وحاولت أن أرفق به ما أمكن أثناء الطريق، ولما وصلنا أمام قسم التاريخ، لم يكن يقوى على النزول من السيارة، فجئته بالمحضر إلى خارج القسم...

تحدثنا مدة عن الربيع العربي، لا سيما الانقلاب في مصر ووقوف النخبة الجامعية في صف الجيش.

- كلمته يوما من أيام بداية شهر أكتوبر وأنا عائد من الجامعة، فقال: هذه غيبة يا أستاذ معريش أين أنت؟ قلت: إننا في هموم الدخول الجامعي، قال: وأين أنت الآن؟ قلت: أنا عائد إلى البيت، قال: تعال أحتاج إليك!

وجدته في غرفة النوم مستلقيا على ظهره الذي صار يعاني منه عناء شديدا منذ شهر رمضان، وحكى لي بنوع من التفصيل عن معاناته.

- قال: إنه انتهى من وضع الهوامش لكتاب التاريخ الثقافى، الفترة القديمة والإسلامية، وإنه ربما يعترف بوجود بعض الهفوات التي مردها إلى المرض، من ذلك مثلا بعض التكرار في التهميش والنقص فيه، والتقديم والتأخير لبعض المواضع، وباختصار جملة من الهفوات، مما يقتضى تصحيحها، واقترح علي أخذ فصلين من العمل والشروع في تصحيحهما، مشيرا علي بأخذها من مكتبه الصغير الكائن قرب غرفة النوم، ففعلت وكانت مسحوبة على ورق.

وحملني يومها أن أبلغ رئيس قسم التاريخ الحاج العيفة، بالأمر لترك له ساعات في الماجستير وأنه سيكتفي بالإشراف على الرسائل الجامعية، ففعلت.

- كلمته بعد أيام مستفسرا عن صحته، فأجابني، ولكن الألم ألم به أشياء المكاملة فاضطر إلى قطعها.

- دخل بعد أيام أخرى مستشفى عين النعجة (لعله يوم 27 أكتوبر)، مصلحة الرثيا (Rumathologie)، وزرته هناك، فأعاد علي نفس الملاحظات المتعلقة بالتاريخ الثقافى، ولكنه أضاف: "سأبعث إليك بباقي الفصول بواسطة البريد الإلكتروني، وإن المقدمة ستصلك بعد ذلك وإنها ستتضمن اسمك".

وقال: "إنني غضبان على شخص تجرأ على نشر خبر دخولي المستشفى في قناة من القنوات".

قال له أخوه إسماعيل مازحا، هل كتبت لنا شيئا جديدا؟ أجابه بأنه طلق الكتابة.

كان يومها في حيرة من أمره لأن الأطباء كانوا في تشاور حول عملية جراحية في العمود الفقري، وكانوا منقسمين حول نجاعتها، وقيل له إن نجاح العملية يقدر بخمسين في المائة. ولكن الرأي رأي في الأخير، واستشارني في أمر القبول من عدمه، وكان رأيي أن قلت له: "استخر الله، وخذ بالأسباب أي انظر إلى حيث مالت أغلبية الأطباء"، وكانت أم أحمد حاضرة، فشاطرني الرأي نفسه.

وفي مكانة لاحقة، للاطمئنان على صحته في المستشفى، سألني ما إذا وصلتني الفصول، قلت له لم تصل بعد، فقال: "سأؤكد على أحمد ليرسلها إليك، وأعلمني بوصولها". ووصلتني بالفعل يوم 31 أكتوبر، وكان لا يزال في المستشفى.

- خرج من مستشفى عين النعجة دون أن يكون قد استقر على رأي.

- وفي 27 نوفمبر أرسل إلي مقدمة كتاب التاريخ الثقافى.

- كلمته ببيته مساء يوم الأربعاء 4 ديسمبر، في أمر إعادة تسجيل طلبة الدكتوراه، وأجابني أحمد عوضا عنه، مما أوحى إلي بأن صحته في تدهور، وطمأنني أحمد على صحته وأنه سيطرح عليه قضية إعادة تسجيل الطلبة، ولما أبطأ في الإجابة هاتفت الدكتور فأجابني أحمد مرة أخرى، فتأكد لي أن صحته لم تعد تسمح له بالرد على الهاتف، وقال إن صحته في تحسن بطيء، وأنه فاتحه في أمر الطلبة، وكانت إجابته أن سلم عليهم، وتلك إشارة أخرى واضحة أنه صار في عالم آخر لم يعد له أمل حتى في القدرة على مواصلة الإشراف على الطلبة.

- لم أكن أعلم بعودته إلى مستشفى عين النعجة مجددا مساء يوم الجمعة 6 ديسمبر 2013. وبعدها صار هاتفه مغلقا أو لا يجيب. ولما أحسست بطول مدة الانقطاع (السبت والأحد 7 و8 ديسمبر)، كلمته من المكتبة الوطنية يوم الاثنين 9 ديسمبر في الساعة 9 والنصف، فأجابني بصوت خافت وغير مفهوم في كثير من الأحيان، فهمت منه أنه في المستشفى وأنه لم يرد إزعاجي بخبر عودته إليه، وانقطعت المكالمة بيننا. أعاد هو الاتصال بي، وبكلام غير مفهوم ثم انقطعت المكالمة، أعدت الاتصال به، ففاجأني: "لو تقلني قليلا"، ثم استدرك، بأنه يجد صعوبة في الاتصال بأحمد وأم أحمد، وأنه إذا كان يوسعي الاتصال بهما، وانقطعت المكالمة.

زرتة يومها (الاثنين 9 ديسمبر)، على الساعة الثانية زوالا، دخل هذه المرة مصلحة الإنعاش، واتضح أن صحته بدأت تتدهور بسرعة، إذ لم يعد يشعر بمن حوله أثناء الزيارة إلا لمدة قصيرة. وأثناء حضورنا، أكل قليلا، وتحدث قليلا، ثم عاد إلى حالة عدم الإحساس بالمحيط. وهكذا كان الاستيقاظ متقطعاً. وكان وجهه نوعاً ما مصفراً ولسانه جافاً الأمر الذي جعل كلامه غير مفهوم، لا سيما في الهاتف.

وكان مما عبر عنه يومها، امتعاضه مما يدور في مصلحة الإنعاش من فوضى وتشويش وصخب وضحك إلى درجة أنه لم يقو على النوم في ظل هذا الوضع، أو كما قال.

- عدت فزرتة مجددا يوم الثلاثاء 10 ديسمبر، وقبل الدخول التقيت في الرواق أخويه إسماعيل وإبراهيم، قلت كيف حال الدكتور؟ قال إسماعيل: "حالته لا تعجب، لم يشعر بوجودنا حتى خرجنا".

دخلت وبقيت أنتظر استفاقته، وسألت الطبيب المكلف به ما إذا كان في حالة غيبوبة، فقال لا، لقد كان مستيقظا في الصباح. وبعد مدة تزيد على النصف ساعة استفاق، نظر إلي ثم عاد إلى الحالة السابقة، أي عدم الإحساس بالمحيط، وظننت أنه لم يعرفني، بقيت واقفا قربه حوالي ساعة أخرى، ثم استفاق، نظر إلي وقال: سي معرّش مازلت هنا؟ ثم عاد إلى نفس الحالة، حتى شعرت بأن وقت الزيارة قد انقضى، فخرجت وهو على الحالة نفسها.

- لم أزره يوم الأربعاء 11 ديسمبر لأن وقت الزيارة في المستشفى تطابق مع حصة محاضرتي في الجامعة. ولكنني كلمت ابنه أحمد مساء ذلك اليوم للاطمئنان على صحته.

- زرتة يوم الخميس 12 ديسمبر حوالي الساعة الثانية والنصف زوالا، توجهت نحو مصلحة الإنعاش فأخبروني بأنه نقل إلى مصلحة الرثيا Rumathologie، حيث كان في البداية، فالتحقت بالمصلحة. وجدت معه أحمد وأم أحمد وإسماعيل، كانت حالته شبه مستقرة، مغمض العينين في أغلب الأوقات، لا يقوى على الأكل، يعاني من جفاف شديد في لسانه. وكان ممتعضا من وجوده في المستشفى، كان حريصا على الخروج منه، حتى إنه قال لأخيه إسماعيل، أنا بلا عنوان، ولم لا أكون في بيتي؟ وقد قال لي شخصا بعدها، خذني أنت إلى البيت، فقالت السيدة: لكن خروجك لا يمكن أن يكون إلا بموافقة الأطباء، ثم غاب عن وعيه مدة فلما استفاق قال وماذا ننتظر؟ قالت السيدة: ماذا تقصد؟ قال: نذهب إلى البيت، فكررت نفس الكلام، لا يمكنك الخروج إلا بموافقة الأطباء، وأحمد الآن يسعى في هذا الاتجاه.

كان الألم يعصره بين الحين والآخر وكان يعاني من جفاف في الفم، واللسان، وكانت السيدة تلقنه بعض الأدوية وآيات من القرآن، ثم غاب عنه الوعي بالمحيط.

ولما انقضت فترة الزيارة، ودعت السيدة وهو على ما هو عليه، آملا أن ألقاه بخير يوم الأحد، - ما دامت الزيارات غير مسموح بها يومي الجمعة والسبت - لقد كانت حالته متدهورة إلى الحد الذي شعرت أنها المرة الأخيرة التي أراه فيها حيا.

- اتصلت بأحمد مساء يوم الجمعة للاطمئنان على صحة الدكتور، وقال إن حالته مستقرة.

- أما يوم السبت فقد توجهت كالعادة إلى جامعة الجزائر 2 (بوزريعة)، وكان مقررا علي تقديم محاضرتين إلى طلبة السنة الأولى ليسانس، وفي حدود الساعة الثامنة والنصف كنت أهم بالدخول إلى مدرج مالك بن نبي، وضعت محفظتي على المكتب وأخرجت الطلاسة، وبالضبط عندما انتهيت من محو السبورة، رن الهاتف فنظرت إليه، وإذا بي أرى اسم أحمد، فهمت للتو أنه خبر وفاة الدكتور، فرددت عليه وكان الأمر كذلك، لا شك أن الطلبة ساعدها قد تعجبوا كيف يرد الأستاذ على الهاتف وكان قد اتفق معنا من قبل ألا نرد لا نحن ولا هو على الهاتف، ولذلك وبالرغم من أنه لم تكن لهم خلفية عن مرض الدكتور إلا أنهم توقعوا خبرا مكروها، فكانت أنظارهم مشدودة إلي عندما أعلنت عن إلغاء الحصة لأن الدكتور أبا القاسم سعد الله قد توفي منذ قليل، كادت دموعي تهمر، وسرعان ما تماكنت نفسي. أخذت محفظتي وخرجت مسرعا، توجهت إلى مدرج بشير خلدون لأعذر إلى طلبة المجموعة الثالثة وإعلان الوفاة، وفي أثناء ذلك كلمت رئيس القسم، ثم انتقلت إلى القسم لإعلام الأساتذة الذين كانوا يدرسون، ثم غادرت الجامعة رأسا في اتجاه مستشفى عين النعجة.

في الطريق هاتفت الأستاذ بلغيث لأنه كان مهتما كثيرا في الأيام الأخيرة بزيارته، فلما أخبرته، قال انتظرنني أذهب معك، وسبقني إلى المستشفى.

وصلت إلى مصلحة الإنعاش وكان بابها الداخلي إسماعيل وإبراهيم سعد الله وأحمد وأم أحمد، عزيت في الحقيقة نفسي وعزيت الجميع، ثم دخلت إلى المصلحة لرؤية جثمان الدكتور، وكان لا يزال يرقد في مصلحة الإنعاش، وقد لف بغطاء، نزعنا الغطاء عن رأسه، قبلته ثم رددنا الغطاء وعدنا إلى الباب لنستفسر السيدة عن ظروف الوفاة لا سيما وأنها قضت الليلة بمعيته. قالت إن المرض اشتد عليه في حدود الساعة الثانية من صبيحة يوم السبت 14 ديسمبر وتفاقم أكثر في حدود الساعة الرابعة صباحا، وتوفي حوالي الساعة السابعة والنصف.

ثم استفسرنا عن الدفن، فقليل إنه أوصى بدفنه في مسقط رأسه قمار.

غادرت أم أحمد المستشفى بمعية إسماعيل لالتحاق بالبيت واستقبال المعزين، وأما أحمد فقد بقي مع جثمان والده. وبعد أقل من ساعة نقل الجثمان إلى مصلحة حفظ الجثث لتسجيته في انتظار إحضار الوثائق الإدارية اللازمة.

وبقينا نتصل بمن نعرف ونعلن خبر الوفاة، كان معي الأستاذ بلغيث كما أسلفت، ثم وصل الأستاذ سعيدوني وزوجته، ثم جاء الدكتور إبراهيم حمادة (الطبيب)، ثم انسحبوا، وبقيت بمعية الأستاذ بلغيث.

بقينا ننتظر الجثمان أمام مصلحة حفظ الجثث من حوالي الساعة 10 صباحا حتى الساعة الثالثة والربع مساء. وأثناء ذلك اتصل صحفيون كانوا يرغبون في الحصول على معلومات أكثر.

- هناك قنوات أذاعت نبأ الوفاة في الساعات الأولى، من ذلك مثلا، تلقيت تعازي من بعض الأقارب، فلما سألت عن مصدر الخبر قيل إن خبر الوفاة يذاع في شريط الأخبار على قناة الشروق.

بلغتنا أخبار مفادها أن السلطات كانت ترغب في تنظيم دفن رسمي، فلما علموا بأن الدفن سيتم في مسقط رأسه، اقترحوا وسيلة نقل رسمية، من ذلك تخصيص الطائرة الرئاسية لنقل الجثمان وبعض المشيعين، ولكن العرض رفض وفاء لوصايا الدكتور.

ومهما يكن فقد اكتملت الإجراءات في مستشفى عين النعجة وكذلك بلدية القبة في حدود الساعة الثالثة والربع، وانطلقت سيارة الإسعاف نحو بيت الدكتور حيث كان ينتظر جمع غفير من الأقارب والأصدقاء والزملاء.

ولما تقرر الدفن في قمار، وأن سيارة الإسعاف ستقل الجثمان ليلا، بدأت أفكر في وسيلة التنقل للمساهمة في الدفن. وقررت في النهاية الانطلاق ليلا نحو قمار.

عين النعجة في 7 جانفي 2014م

الموافق لـ 6 ربيع الأول 1435هـ